الأميرُ، اسمهُ: ليون

- «هل ستظلُّ هكذا؟».

نائمًا على الأرضِ والدمُ يسيلُ مِن وجههِ، نظرَ الأميرُ المهزومُ إلى أعلى، فرأى وجهَ عجوزٍ ذي لحيةٍ بيضاء طويلةٍ، ثم عادَ ليفقدَ تركيزهُ على ما حوله، وأخيرًا نطقَ بأولِ كلماتهِ: «هل لاحظتَ أني صحوتُ؟».

- «الجميعُ لاحظَ».

-«اتركني».

لمْ يفعل العجوزُ كما طُلِبَ منهُ، ولكنهُ انحنى وأمسكَ بيدِ الأميرِ، قائلًا: «هيَّا، قمْ».

وكانت القوةُ التي منحتها يدُ العجوزِ كافيةً لتعيد الأميرَ إلى قدميهِ، فوقفَ ونظرَ حولهُ. كانت الزنزانةُ واسعةً لكن مظلمةً، رأى بها وجوهًا شاحبةً تظهرُ كلما مرَّتْ بالقربِ مِن المشعلِ الوحيدِ، ثم تبعُد فتختفي في الظلامِ ثانيةً، ولمْ يعلمْ إن كان المكانُ كلهُ تحتَ الأرضِ أم فوقها. وكان القزمَ ومَن معهُ في ركنٍ بعيدٍ؛ فقد اكتفوا بما فعلوا، خاصةً بعد أن سمعوا أن موتَ الأميرِ قريبٌ.

وفي النهاية، تبعَ الأميرُ العجوزَ إلى ركنٍ آخر مِن أركانِ الزنزانةِ، بعيدًا عن حيث جلسَ القزم.

- «ما اسمكَ؟».

جلسَ الأميرُ وظهرهُ إلى الحائطِ، فوجدهُ شـديد البرودةِ، وجلسَ العجوزُ بجانبهِ، فوجد الحائطَ دافئًا.

أجابَ الأميرُ: «وهل سيُحْدِثُ ذِكْرهُ فرقًا؟».

ضحك العجوزُ ضحكةً خفيفةً، ثم قال: «تبخلُ عليَّ باسمكَ؟ أنا مثلكَ مِن ألسندا، مع أني لمْ أرها منذ وقتٍ طويلٍ جدًا. وقتما زرتها آخر مرةٍ، بلغني نبأ مولدِ الأميرِ ليون، فكنتُ أريدُ التأكدَ أني لمْ أغِبْ وقتًا كافيًا ليصيرَ ذلك الطفلُ رجلًا كبيرًا مثلكَ».

- «غِبْتَ ١٨ سنة. أجبتُكَ على سؤالكَ، فماذا استفدتَ؟».

- «(المتوقعُ أن يسألَ الرجلُ عن متى يصيرُ حرًا، لا عن كم سنةً مضاها بالسجنِ)، أليس ذلك ما تريدُ قولهُ؟».

لمْ يُجِب الأميرُ ليون، فنظرَ العجوزُ إليهِ عن قربٍ، حتى يرى وجههُ ويستطلعَ ما ينبغي عليهِ أن يقولَ.

وهو يشيرُ إلى يدِ ليون اليسرى، تحدثَ ثانيةً: «يبدو أن هذا الخاتمَ غالٍ، أعني معنويًا... أولُ ما تحققتَ منهُ عندما صحوتَ كان وجودهُ، أيحملُ معنًى خاصًا؟».

- «أهدتهُ لي أمي قبل وفاتها».

قال العجوزُ: «تناقضٌ غريبٌ... تشارفُ على استقبالِ الموتِ، وتهتمُّ بمثلِ هذه الهديةِ، أتظنُّ أنكَ ستحملها إلى القبرِ؟».

- «ماذا تريدُ مني؟».

سكتَ العجوزُ لحظةً، ثم رفعَ رأسَ ليون لينظرَ في وجههِ وقالَ: «أنا كثيرُ الكلامِ، أعلمُ، ولا أتوقعُ مِن غريبٍ قابلني في مثلِ هذه الظروفِ

أن يتقبلَ كلامي بوديةٍ، ولكني، سيدي الأمير، كأحدِ أبناءِ ألسندا سأحكي لكَ قصةَ رجلٍ عجوزٍ... قصةً فاشلةً، قصةً قصيرةً، لا تُمتِعُ المستمعَ. وسأحققُ مشيئتي هذه، وإن لمْ ترضَ».

لمْ يُجِبْ ليون، وأكملَ العجوزُ: «في زنزانةٍ قذرةٍ يجلسُ رجلٌ عجوزٌ كلَّ يومٍ، لا يتوقعُ الخروجَ طوالَ حياتهِ، ولا يعرفُ إن كان شيئٌ ينتظرهُ بالمستقبلِ. كان يومًا صاحبَ مالٍ وأرضٍ وعائلةٍ، ولكنهُ الآن لا يمتلكُ حتى أن يسمعَ أخبارهم. ومع ذلك، يظلُّ هذا العجوزُ يعيش أيامهُ، يأكلُ مما يُعطى مِن طعامٍ شديدِ المرارةِ ويأملُ كلَّ يومٍ أن يعودَ ليرى أبناءهُ وأحفادهُ... يرفضُ الاستسلامَ وإن كانتْ هذه الحياةَ، لماذا يا تُرى؟».

- «هل يمكنهُ أن يغيّر الماضي؟».

- «أوافقكَ الرأيَ، سيدي الأمير، لا يستطيعُ تغييرَ ماضيهِ ولا مستقبلهِ. ولكن لأنهُ لا يريدُ ذلك الآن؛ لأنهُ ما زالَ خائفًا ألا يكونَ ابنهُ قد حصلَ على حياةٍ أفضل، لأنهُ لا يريدُ أن يخرجَ ليراهُ على حالٍ غير التي حلمَ بها».

نظرَ ليون في وجهِ العجوزِ، لقد علمَ الآن غرضَهُ، وهو أن يشجّعَهُ ويخرجهُ مِن حالتهِ السيئةِ؛ لذلكَ أجابَ: «لا تقل لي أنهُ يمكنهُ إن شاءَ أن يخرجَ مِن مثلِ هذا السجنِ».

- «فقط إن أراد».

- «إنهُ لا يواجهُ الواقعَ فحسب؛ الواقعُ أشدُّ وأفظعُ».

ضـحك العجوزُ وقـال: «ســمعتُ نفس الجملةِ من ابني يومًا؛ سـأنصحكَ كما نصحتهُ، الإنسـانُ وحدهُ هو مَن يقللُ مِن شـأنِ نفسـهِ ويحبسُ نفسهُ... فقط لأنهُ يظنُّ أنهُ لا يقدر».

- «وماذا عليَّ أنا الذي أنتظرُ الإعدامَ أن أفعل؟».

- «تمنَّى الحياةَ».

ضحكَ ليون مِن الإجابةِ البسـيطةِ ونظر إلى أعلى، مريحًا رقبتهُ ومتفاديًا العجوزَ.

قال العجوزُ: «هل تريدُ أن تموتَ؟».

-«لا».

-«لماذا؟».

لمْ يُجِبْ ليون، فسارعَ العجوزُ بالقولِ: «فكِّر في السببِ».

ومع آخِر كلماتِ العجوزِ، جاء صــوتُ القزمِ من الناحيةِ الأخرى يصيحُ مترددًا: «أيــ. أيها العجوز! دَفعُكَ لدَيْنِ الحقيرِ لا يعني أن بإمكانكَ مصـادقتهُ! هذا يكفي! لن يُحدِّثهُ أحدٌ إلى أن يتركنا للرفيقِ الأعلى! فهمتم جميعًا؟!».

ضحكَ العجوزُ ثانيةً وهو يقومُ؛ فالقزمُ ظلَّ خائفًا طوال الوقتِ مِن أن يُكررَ ليون ضربهُ، وتحدَّثَ مِن مسافةٍ مناسبةٍ.

- «لماذا يريدُ الإنسانُ أن يحيا، حتى وإن خسرَ كلَّ ما بالحياةِ؟».

أضافَ ليون سؤالهُ لأسئلتهِ العديدةِ، وأخذَ يقضي الليلَ يفكِّرُ، محاولًا استقبالَ الفجرِ -قبل الموتِ- برؤيةٍ أوضحَ لما هو بهِ. كان متأكدًا مِن شيءٍ واحدٍ: في عدةِ أيامٍ خسرَ العديدَ مما قضى حياتهُ لأجلهِ: أولًا، كسر التقليدَ الأهمَّ بألسندا، وهو أن يقودَ جزءًا مِن الجيشِ بنفسهِ؛ كسرهُ لأن أباهُ خافَ أن يفقدَ وليَّ العهدِ الوحيدَ، ففقدَ كرامتهُ. ثانيًا، لمْ يستطعْ حمايةَ أختهِ الأميرة، بل وهو لا يعلمُ إلى الآن ماذا حدثَ لها. وأخيرًا، فقد كلَّ شيءٍ -الوطنَ والبيتَ والعائلةَ، والأملَ والقوةَ والمساندةَ- . أين كان طريقهُ إلى الحياةِ التي اعتادها؟

ومع كلِّ ذلكَ، أرادَ أن يهربَ مِن الموتِ الذي انتظرهُ. ومع كلِّ ذلكَ، اختارَ الحياةَ.

- «إنه في دم أبناءِ ألسندا، أليس كذلك؟ هذا الشعورُ بقلبي... أريدُ الحياةَ حتى مع اليأسِ... هذا الشعورُ خرجتَ بهِ إلى الحربِ، أليس كذلك؟».

تحدَّث ليون وكأن والدهُ الملكَ الصالح بالسماءِ يسمعهُ، ثم بدأ النومُ يغلبهُ قليلًا بينما اقتربَ فجرُ ليلتهِ بالزنزانةِ.

في لحظةٍ، كانَ داخلَ نفسِ الزنزانةِ، ولكن داخلَ حلمٍ، حلمٍ عكسَ واقعهُ كما كان، حتى ظنَّ أنهُ لمْ ينمْ مطلقًا. ولكن حيرتهُ بين الواقعِ والحلمِ اختفتْ بسرعةٍ؛ ففي اللحظةِ التاليةِ سمعَ صوتَ البابِ الحديديِّ الطويلِ يسقطُ، ورفعَ رأسهُ فوجدَ ضوءًا قويًا يغزو ظلامَ الزنزانةِ، ثم مِن وسطِ الضوءِ ظهرتْ ثلاثُ فتيات في سنهِ أو أكبرَ قليلًا،

وسِـرن تجاههُ دونَ غيرهِ، فنظرَ إليهنَّ بعينين أعماهما الضـوءُ، وسـألهنَّ: «مَن أنْتُنَّ؟».

- «هل هذا هو الأميرُ؟».

-«أجل».

- «هل أنتِ متأكدةٌ؟».

اقتربن مِن ليون، وسـرعان ما مددن أيديهن تجاههُ وسـاعدنهُ على الوقوفِ ثانيةً، ثم كما ظهرن اختفين، واختفت الزنزانةُ كلها مِن الحلمِ، وبدلًا منها ظهرتْ غرفتهُ في القصـرِ الملكيّ في سِـنْفُنِي -عاصـمةَ ألسندا-.

وقفَ وسـطَ الغرفةِ التي تعوَّدَ عليها، وملأ ضـوءُ الظهرِ أركانها كما عهدهُ أن يفعلَ، ولكن حولهُ بدأتْ عدةُ أشـباح سـوداء تدورُ، تظهرُ وتختفي بنمطٍ دائمٍ، منها ما يشـبهُ أختهُ فيحاولُ جذبَ يدهِ، ومنها ما يشبهُ صورةَ قاسم الجراح أو ابن الإمبراطور فيحاولُ دفعهم بعيدًا.

ثم بنهايةِ دورانِ الأشـباحِ، اختفتْ جميعها، وتكسَّـرتْ أرضُ الغرفةِ، فنظرَ ليون تحتهُ ليجدَ سهلًا كبيرًا يغطيهِ العشبُ، ثم إلى طرفي السـهلِ ليجدَ جيشين عظيمين جنودهما لا تحصى، يقفان وجهًا لوجهٍ، ربما لابتداءِ معركةٍ ما.

وفي النهايةِ، التفتَ إلى منتصـفِ السـهلِ -بين الفريقين-، فوجدَ عشرة أشخاص يقفون في دائرةٍ، وأسلحتهم مشهرةٌ تجاهَ كلا الجيشين.

وفي لحظةٍ وجدَ نفسهُ أحدَ العشرةِ، يقفُ بينهم.

بدأ المطرُ يهطلُ في أرضِ المعركةِ، واندفعَ الجيشـــان بقاداتهما وسطَ الصيحاتِ وأصواتِ الأسلحةِ... وانتهى الحلمُ.

عادَ ليون إلى الزنزانةِ ليجدَ أحدَ الجنودِ يركلهُ ويصيحُ: «استيقظْ أيها السجين! حان الوقتُ!».

جاء الصباحُ ولمْ تصِل الإمداداتُ مِن العاصمةِ، وأخذ قاسم الجراح قرارهُ بالمضيّ قُدُمًا بالإعدامِ.

شُدَّ ليون مِن شعرهِ ليقومَ مِن مجلسهِ، ثم طُرِحَ أرضًا ثانيةً، وربطَ الجنديُّ يديهِ وراءَ ظهرهِ بإحكامٍ، ثم أعاده إلى قدميهِ، وسارَ بهِ إلى خارجِ الزنزانةِ وسطَ جهْرِ القزمِ ومَن معهُ بفرحتهم وكتمانِ العجوزِ لأدعيتهِ بالرحمةِ والعونِ للأميرِ الشابّ. وأُغلِقَ بابُ الزنزانةِ ثانيةً، فنظرَ ليون حولهُ نظرةً قبل أن يُدْفعَ إلى الأمامِ. وتحمَّلَ سوءَ المعاملةِ وهو يساقُ إلى خارجِ المبنى، وظلَّ ينتظرُ فرصةً ليقومَ بأي حركةٍ تنقذهُ مما كان فيه، ولكنهُ في النهايةِ، وصلَ إلى ساحةِ الحصنِ دونَ الحصولِ على ما أرادَ.

هناك، وجدَ منصةً كبيرةً تنتظرهُ بالقربِ مِن برجِ الحصنِ، ورأى جمْعًا مِن الجنودِ يقفون في مواجهةِ المنصةِ، منتظرين العرضَ الذي سيكونُ ليون ممثلهُ الرئيسيَّ. ولمْ يتضايقْ مِن الإهاناتِ التي سمعها مِن الحشدِ، ولمْ يبالِ بالضربِ المتواصلِ على ظهرهِ؛ فإن شُتِّتَ ذهنهُ عما كان يفكّرُ فيهِ، فقدهُ للأبدِ.

- «لن أموتَ، لا هنا، لا الآن».

كان يكررُ هذه الجملةَ بالقدرِ المستطاعِ، حتى وصلَ إلى المساحةِ الصغيرةِ التي تفصلُ المنصةَ عن الحشدِ، وفي هذه البقعةِ استقبلهُ منظرٌ فضَّلَ الموتَ عليهِ.

رأى رمحًا مثبتًا في الأرضِ وموضوعة في سنِّهِ رأسُ ملكِ ألسندا - رأسَ أبيهِ-، وفي تلك اللحظةِ فلتَ مِن يدي الجنديِّ الذي قادهُ، وانطلقَ بيديهِ المربوطتين تجاهَ الرجلِ الضخمِ الذي وقفَ بجانبِ الرأسِ.

- «قاسم الجراح! أيها الـــ».

أمسكَ قاسم الأميرَ مِن رقبتهِ ورفعهُ في الهواءِ، ثم ضحكَ ضحكةَ استهزاءٍ بحماسِ ليون وغضبهِ، ثم قال: «لا تقلقْ؛ لن تتخلفَ عن والدكَ طويلًا»، ثم طرحهُ أرضًا بقوةٍ فراحَ الحماسُ في الألمِ، ثم جذبهُ مِن شعرهِ ورفعهُ ثانيةً، هذه المرةَ في مواجهةِ الحشدِ. وبدأ يتكلمُ:

- «أيها الجنود، أبناء ديمنتيا المخلصين، يجبُ أن تفرحوا، لا، أن تهللوا بأعلى أصواتكم؛ فأنتم اليومَ تشهدون التاريخَ. لا يصمدُ عدوٌّ أمامَ الإمبراطوريةِ، وأمامكم الدليلُ -رأسَ ملكِ ألسندا (الصالح)، الذي قررَ معاداةَ الإمبراطورِ جلالته-. والآن، ابنهُ -الأمير المهزومِ، الأمير الهَلِع، سمُّوهُ كما تشائون- احتمى بأسوارِ عاصمتهِ الخائبةِ، وسقطَ كما سقطتْ! شاهدوا بأعينكم قوةَ الإمبراطوريةِ، وحدِّثوا بها كلَّ مَن يجهلها!».

- «يعيشُ الإمبراطور!».

- «تحيا ديمنتيا والحلفُ الخماسيُّ!».

- «الموتُ للعدوِّ!».

أســكتَ قاســم الصــيحاتِ بإشــارةٍ مِن يدهِ، ثم رمى ليون على الأرضِ، ودهسَ بقدمهِ على وجههِ، وصاحَ: «الإمبراطوريةُ ستكسرُ جميعَ الأعداءِ تحتَ أقدامها!».

وتعالت الصيحاتُ مرةً أخرى بينما عادَ قاسم إلى كرسيٍّ خشبيٍّ يبعدُ عدةَ أمتارٍ عن منصةِ الإعدامِ، ليشاهدَ منهُ ما يحدثُ.

- «لمْ تلمحْ عيوننا الاســتطلاعية أي أعداءٍ في المنطقةِ، وما زلتَ مُصِرًّا على المضيّ بالإعدامِ».

نظرَ قاســم نظرةَ توبيخ إلى قائدِ الحصــنِ، وقال بحزمٍ: «أنا أحافظُ على كلمتي، ولا التزام لي تجاهكَ، فالزمْ حدودكَ».

صــمتَ قائدُ الحصــنِ، والتفتَ إلى منصــةِ الإعدامِ ليرى الأميرَ الشابَّ يتقدَّمُ إلى منتصفها.

تقدَّم ليون أعلى الدرجاتِ إلى المنصــةِ، وتوجهَ إلى منتصــفها والغضــبُ يملأ وجههُ، ولا يحجبهُ إلا شــعرهُ الذي عادَ ليغطي شــراراتِ عينيهِ. وتسارعتْ أفكارهُ:

- «هذه الدنيا ظالمةٌ؛ مِثْلُ هذا الرجلِ الحقيرِ استطاعَ سلبَ كل شيءٍ مني، والآن يدهسُ على كرامتي، ولا يمكنني الردُّ... لا، ليست الدنيا، بل هؤلاء -هؤلاء الذين يصفقون ويصيحون مساندةً لهذا الظلمِ دون تفكيرٍ-. ولكن في وجهِ هذا الظلمِ، ماذا أريدُ (أنا) أن أفعل؟ ما الذي أقدرُ على فعلهِ؟ على الأقلّ لا أريدُ الموتَ بهذا الندمِ...».

نزلَ ليون إلى ركبتيهِ، ودفعَ الجنديُّ رأسهُ حتى تستقرَّ على جانبها الأيمن على منضدةٍ حديديةٍ صغيرةٍ، وظهرتْ رقبتهُ التي قد تُقطعُ في أي لحظةٍ. ومِن بعد، رأى ليون أحدَ الجنودِ يُحضرُ دلوًا خشبيًّا ستسقطُ بهِ رأسهُ فورَ انتهاءِ العرضِ. وأخيرًا، رأى منفِّذَ العقوبةِ يقتربُ مِن بعيد، مرتديًا جلبابًا طويلًا أسود وغطاءَ رأسٍ ووجهٍ ليخفي هويتهُ، وبيدهِ كانت فأسٌ حديديةٌ عملاقةٌ، سنُّها ملطخٌ بدماءِ مَن خطفت أرواحهم.

أغلقَ ليون عينيهِ، وبدأ يرددُ: *«لن أموتَ هنا، لن أستسلمَ! حتى وإن أرادني العالمُ بأسرهِ أن أموتَ، سأحيا!»*.

ارتفعت الفأسُ عاليًا، وبدأت تهوي إلى الأسفلِ.